

## النهضة عن طريق العلم والدين (قراءة فى أفكار الأفغانى)

أ.د. محمود قاسم \*

أجمع المصلحون منذ أواخر القرن التاسع عشر على أنه لن تقوم للمسلمين قائمة إلا بالعلم ، ولا يريدون به هذا العلم المستحجر الذى عرفوه فى كتب المتأخرين من الفقهاء وأهل الجدل ، ذلك العلم الذى مازال يطبع عقول ملايين من أبناء المسلمين بطابع الجمود وضيق الأفق الذى تتميز به عقلية القرون الوسطى ، وإنما يريدون به العلم الحديث ، أى العلم الأوربى الذى يعتمد على كشف القوانين وتسخير الظواهر الطبيعية ؛ ذلك أن هذا العلم هو الذى حرر العقول من الأوهام والأباطيل ، وهو الذى يستطيع أن يحدد حيوية الشعوب الإسلامية ، وأن يعين أبناءه على الاقتراب من مصادرهم الأولى التى استغلقت على أفهامهم ، مع أنها أكثر وضوحاً وبداهة ، مما اخترعه ذوو اللجج من علمائهم السابقين .

ونقول : إن المصلحين أجمعوا على ضرورة الاستعانة بالعلم الحديث ؛ لأنهم رأوا أن تقدم أهل أوربا ، إنما يرجع إلى تحررهم من عقلية العصور الوسطى ، ومن رجال الكهنوت الذين زعموا أنهم قادة الفكر وحملة العلم الدنيوى والأخروى . لذلك نرى أمثال أحمد خان فى بلاد الهند يقرر فى صرامة أن المسلمين لن ينهضوا إلا إذا أخذوا عن أوربا علومها ومدنيتها ؛ ذلك لأن العلم لا يفقد المسلمين شخصيتهم ودينهم ؛ بل إنهم فقدوا ذلك أو كادوا يفقدونه بسبب

---

\* أستاذ الفلسفة الإسلامية ، وعميد كلية دار العلوم الأسبق ، وأحد رواد الفلسفة الإسلامية فى العالم العربى (توفى 1970)

جهلهم ، ومن ثم يجب عليهم أن يشاركوا الأمم الأوربية فى معارفها ، وأن يزاحموها ما استطاعوا فى كل فروع العلم والفن . كذلك رأى محمد عبده فى مصر أنه لا أمل فى نهضة المسلمين فى مصر إلا بإصلاح الأزهر وإدخال العلوم الحديثة وتطهير الدين من الخرافات التى تفيض بها تلك الكتب التى ينظر إليها بعض المشتغلين بدراسة الدين نظرة التقديس التى لا تقوم على الفهم ، بقدر ما تقوم على الجهل والرغبة عن تكوين رأى شخصى .

لكننا سنشير بصفة خاصة إلى موقف أكبر هؤلاء المصلحين ، ونريد به جمال الدين الأفغانى ، فقد قيل عنه إنه كان عدواً للحضارة الأوربية ، وإنه وقف فى سبيلها حتى لا تنفذ إلى بلاد المسلمين . وربما احتج هؤلاء بموقفه من أحمد خان فى الهند ، ومن آراء الفلاسفة الماديين فى رسالته للرد على الدهريين<sup>(1)</sup> ، أو ربما احتجوا بنقده لجماعة ممن بهرتهم مظاهر الحضارة الأوربية وقشورها ، أو ربما لم يحتجوا بشئ من هذا كله أو من غيره ، لكنهم أرادوا - لسبب لا نود البحث عنه - أن ينسبوا إلى الأفغانى رأياً لم يكن من آرائه فى حقيقة الأمر . ونقول إننا لا نود البحث عن العوامل التى قد تدعوهم إلى تجريح هذا الرجل ؛ لأن هناك ما هو أجدى فى نظرنا من الاستطراد فى هذه المسألة ، ونريد بذلك الأهم الأجدى أن جمال الدين عرف للعلم الحديث قيمته ، وأنه لا ينكر أن تقدم أوربا يعتمد على أساس من العلم الصحيح ؛ بل إنه ليأخذ على المسلمين ، وعلى علماء الدين منهم خاصة ، أنهم يقفون من العلم موقف العداء ، بحجة المحافظة على العقيدة وعلى التقاليد ، ذلك أنه لا يجهل أن هذا الدين يدعو إلى العلم ، وأن القرآن يعجب لهؤلاء الذين يسوون بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

وكيف يجهل الأفغانى موقف الإسلام من العلم ، وهو الذى لا يفتأ يردد فى كل مناسبة أن الإسلام ليس عدواً للعقل أو مناهضاً له ، وأنه يمتاز عن غيره من الأديان بدعوة الناس إلى البحث النظرى والبرهنة على عقائدهم ، والسعى فى

(1) انظر كتابنا جمال الدين الأفغانى : حياته وفلسفته ، ص 108 ، 109 .

تحصيل العلم ولو كان فى أقصى أطراف الأرض ؟ فهل لأحد أن يزعم ، بعد ذلك ، أن الأفغانى كان رجعيًا مقلدًا ، وأنه وقف فى طريق نشر الثقافة الغربية فى الشرق ؟ حقاً لقد دحض بعض الآراء الفلسفية الإلحادية ونعنى بها نظرية الماديين ، أو أصحاب المذهب الوضعى ، وهو ذلك المذهب العلمى المزعوم الذى ساد فى أوروبا فى أواخر القرن الماضى ؛ لكننا نعلم الآن أن كل الآراء الفلسفية الإلحادية التى حيكت حول نظرية "داروين" هى أبعد عناصر هذه النظرية عن طبيعة العلم باعتراف المشتغلين بالفلسفة فى وقتنا الحاضر . كذلك نعلم أن العلماء فى هذا العصر قد رجعوا عن المذهب الوضعى الذى زعم أن العلم قد أدرك غايته ، فاعترفوا أن آفاق العلم مازالت أكثر امتداداً واتساعاً مما خيل لبعض الفلاسفة كأوجست كونت وأتباعه ؛ ممن كانوا يرون أن العلم كشف عن جميع القوانين الممكنة ، وأنه يستطيع أن يحل محل الدين فى وضع أسس الأخلاق دون حاجة إلى العقائد الدينية ، كالإيمان بوجود الله وخلود النفس . فإذا كانت هذه الآراء الإلحادية ، أو الفكرة المفرطة عن قيمة العلم ، هى التى حاربها جمال الدين فبنا لنعجب لأمر هؤلاء الذين يرمونه بأنه كان عدواً للعلم ؛ إذ كان أولى بهم أن يعترفوا بأنه كان صادق النظرة ، وأنه سبق علماء عصرنا فى هتك ستار هذه الآراء الفلسفية الخاطئة ؟

هذا إلى أن الأفغانى يأخذ على المسلمين أنهم لا يقتبسون من الحضارة الأوروبية سوى مثل هذه الآراء الفلسفية الواهية ، ولا يرتضون منها غير كل تافه لا خطر له ؛ بل هم أسرع الناس إلى اختيار كل شئء يزيدهم انحلالاً وتدهوراً ، ثم يغفلون عن العلوم الحقيقية كعلوم الطبيعة والكيمياء والهندسة والميكانيكا ، وغيرها من العلوم التطبيقية أو الفنون التى لا غنى عنها فى تسخير قوى الطبيعة، وكسب أسباب القوة الحربية . ولو أنهم فهموا دينهم حق الفهم لعلموا أن تحصيل مثل هذه العلوم واجب دينى ، قبل أن يكون واجباً اجتماعياً ؛ لأن الإسلام يدعو أهله إلى أن يكونوا أقوياء ، وذلك أمر لا سبيل إليه إلا عن طريق العلم . فمن العبث إذن أن يقال إن جمال الدين كان عدواً للعلوم الحديثة ؛ إذ كيف

ينادى مصلح من طبقته إلى العودة إلى الدين الصحيح ثم يعلنها حرباً عواناً على العلم الذى يدعوا إليه هذا الدين ؟ حقاً إن من يحارب العلم رجل يجهل حقيقة الإسلام وحقيقة العلم . وما نظن أن الأفغانى قد بلغ هذا الحد من الغفلة التى ربما نسبها إليه من لا علم له بآرائه الحقيقية !

### موقف المسلمين واليابانيين من العلم الأوروبى :

فإذا بقى بعد ذلك ريب فى نفوس من يصفون جمال الدين بأنه كان عدواً للعلم ، فمن اليسير أن يلتمسوا رأيه فى المقارنة بين موقف المسلمين واليابانيين من حضارة الغرب . فقد فتن الأولون - كما قلنا - بالمظاهر التافهة لهذه الحضارة ، كما شغلوا عقولهم بالآراء الإلحادية ؛ بينما احتفظ الآخرون بعقائدهم الوثنية ، ووقفوا فى طريق التبشير بالدين المسيحى ، واحتفظوا بتقاليدهم العتيقة، لكنهم حرصوا كل الحرص على تقليد الأوربيين تقليداً صحيحاً ؛ وذلك باقتباس علومهم المختلفة . لذلك رأيناهم يرسلون البعثات العلمية بالمئات لتحصيل كل نافع ، ثم ترجموا العلوم أولاً ؛ لأن حاجتهم إلى العلم كانت أشد من حاجتهم إلى الأدب أو إلى مذاهب الإلحاد ، وهذا فيما نعلم عكس الاتجاه الذى سلكه المسلمون حتى زمن قريب . ويفسر لنا هذا المسلك لماذا ما برحنا متأخرين عن الغرب بأشواط بعيدة . أما اليابان فقد نهضت نهضة علمية حقيقية، وأرغمت الأوربيين على احترامها ؛ لأنها سبقتهم فى ميدان العلم والصناعة حتى سبقتهم .

وربما أمكن تفسير هذا الفارق بين اليابانيين والمسلمين بأن أمة اليابان لم تشهد من الكوارث التاريخية ما شهدت الأمة الإسلامية . فقد ظل اليابان مغلقاً فى وجه الغرب والمسيحية أكثر من قرنين من الزمان . ثم فتح أبوابه على العالم الخارجى ، فرأى أنه يستطيع هو الآخر أن ينشئ إمبراطورية عظيمة ، وأن تحقيق هذا الأمل لا يكون إلا باصطناع الأساليب التى يستخدمها الغرب من إعداد

القوة ، وذلك أمر لا سبيل إليه إلا بتحصيل العلم . أما بلاد المسلمين فقد فتحت أبوابها منذ أجيال بعيدة للغزو الأوربي ، سواء أكان حربياً أم فكرياً ؛ لكنها بقيت فى أثناء ذلك بمعزل عن الحركة العلمية الصحيحة . وساعد على ركودها أن فلاسفة الغرب حرصوا على التغرير بالشرق ، فأطروا أهله بأن شرقهم مهبط الوحي ومسرح الخيال . وأن العقلية السامية لا تقوى على التعمق والتحليل وسبر غور الظواهر للكشف عن قوانينها . وفرح الشرقيون ، ومن بينهم المسلمون ، بهذا الإطراء ، وحسبوا أن خيالهم وروحانيتهم شئ أصيل فيهم ، ولو بحثوا فى أعماق نفوسهم ، فى الوقت الحاضر ، لوجدوها على غير كثير من الخيال والروحانية ، وأنهم جماعة من المرضى ، وأن الغرب قد أحسن التغرير بهم حتى يقضى على كل محاولة جدية لتقليده تقليداً صحيحاً ، وأن له فى ذلك التغرير أساليب شتى ؛ فهو يعلم أنه لن يستمر مسيطراً على الشرق إلا إذا وقف فى سبيل نهضته عن طريق العلم . فقد شهدنا كيف اجتهد الإنجليز فى صرف المصريين عن المناهج الصحيحة ، وحاولوا أن يدخلوا فى روعهم أن بلادهم زراعية فحسب ، وأنها لا تصلح لأى نوع من الصناعة ، وبخاصة صناعة النسيج التى تتطلب جواً إنجليزياً لا مصرياً ؛ ورأيناهم كيف غيروا اتجاه التعليم ، وجعلوا يعدون طبقة من الموظفين الذين يشبهون الآلات الصماء ، ولا يقطعون برأى دون الرجوع إلى رؤسائهم من الأجانب . وهكذا قضى على روح الابتكار وعلى الرغبة فى حرية التصرف . وساءت الأداة الحكومية بعد خروج هؤلاء الرؤساء ؛ لأن المرؤسين ألفوا ألا يبتوا فى أمر من تلقاء أنفسهم ؛ بل لابد من مسئول يرجع إليه . فغدا كل يطرح المسئولية عن نفسه ليلقيها على غيره ، وبين هذا وهذا وذلك تضيع حقوق الناس .

وكيف لا يحاول الغرب خديعة الشرق ؟ إنه يوهمه أنه جاء إلى بلاده لكى ينهض بأهلها ، فيظن الشرقى أن سيطرة الغرب مؤقتة ، وينسى أن هذا الغرب لن يفى بوعده . وكيف له أن يحترم عهداً وهو يرى رأى العين أن كل شعب يستعمره ، هو شعب جاهل خامل يقيم ببقاع خصبة غنية بالمعادن والثروات

الطبيعية ، وبأقاليم تتسع للمشروعات الاقتصادية الكبرى ؟ هذا إلى جانب اعتدال جوها وموافقتها لحياة الجنس الأوربي الذى يؤمن أنه أحق الناس باستغلال هذه البلاد ، وأنه ليس للشرقيين أن يحتجوا إذ لو كانوا فى مكان الأوربيين لفعلوا مثلهم .

### الجمع بين التعليم النظرى والعملى :

ولما كانت حياة أهل الشرق بالعلم الصحيح موتاً لحكم الغرب فيهم<sup>(1)</sup> لم يكن بد من أن يحوروا فكرتهم عن العلم تحويراً شاملاً ؛ بحيث لا يكون العلم ثقافة سطحية هى أقرب إلى الجهل منها إلى أى شئ آخر . فيجب أن يهدف التعليم عندهم إلى الجمع بين الناحيتين النظرية والعملية . ذلك أننا نميل عادة إلى تقليد الأوربيين فى مظهرهم ، فنحسب أن العلم سبيل إلى الانصراف عن العمل اليدوى ، مع أن الأكثرية الغالبة من شباب أوربا تنفر من الوظائف الحكومية ، وتتجه نحو الأعمال الحرة ؛ لأنها أقصر الطرق إلى تحصيل الثروة والرفاهية . فيجب إذن أن نقلد الغرب فى اتجاهاته الصحيحة وأن ننظر بعين الحذر إلى اندفاع شبابنا إلى الدراسات النظرية التى تخلق طبقة من المستهلكين لا المنتجين . وقد آن للشرق أن يعلم أن مستقبله رهن بالعمل والإنتاج ، فإن أصغر دول الغرب رقعة ربما كانت تفوق فى إنتاجها ممالك الشرق الأوسط بأسرها .

وليس من بأس أن يعلم الطفل الحداثة والنجارة وتربية الحيوان إلى جانب القراءة والكتابة والحساب "حتى يخرج رجل علم وعمل ، لا رجل غطرسة وعجرفة وكسل ، يكثر به وبأمثاله العدد ولا ينتفع به أحد " ، وحتى لا تجد الأقطار الشرقية نفسها أمام تلك الأزمت الشاذة التى يسمونها "أزمات المتعلمين" ويريدون بها ، أن خريجي الجامعات أو المدارس العليا لا يجدون عملاً يتناسب

(1) وهذه كلمة لجمال الدين الأفغانى .

مع مؤهلاتهم العلمية . ونقول إنها أزمت شاذة ؛ لأنها غير معروفة في الغرب بل تجرى الأمور على عكس ذلك ؛ فإتانا نسمع بين حين وحين أن إقبال الشباب المتعلم على الأعمال الحرة في المعامل والمصانع يزعج أساتذة الجامعات إلى حد كبير ؛ لأنهم يرون أن خيرة المتخرجين ينصرفون عن مهنة التدريس في الجامعات مما ينذر بهبوط المستوى العلمي عندهم .

أما في الشرق فما زالت العلوم النظرية والآراء الفلسفية والدراسات التاريخية تحتل المقام الأول في المعاهد . وكثيراً ما يتجه المتخرجون في المدارس العملية إلى الكليات النظرية للحصول على مؤهل علمي يتيح لهم الظفر بإحدى الوظائف الكتابية ، فراراً من عناء مهنتهم العملية ، ومن سوء تقدير الناس لها . وهذا هو أحد أسباب تأخر الشرق حتى الآن . فإنه بدأ يقلد الغرب قبل اليابان ، لكنه لم يصل بعد إلى ما أدركته هذه الأمة من قوة وثروة . ذلك أن العلم الصحيح هو الذي يجمع بين الجانب النظري والعمل . وقد ازدهرت الحضارة الإسلامية فيما مضى بسبب العلم . واليوم يفوقنا الغرب أيضاً بسبب العلم ؛ لأنه مصدر القوة والسطوة ، بينما يستسلم له الشرق بسبب الجهل ، وهو منبع كل ضعف وتخايل . وقد يقال إن شباب الشرق مكره على الاتجاه إلى الدراسات النظرية لأن منافذ العمل مسدودة أمامه بكل سبيل : ولا ندري إذا كان أصحاب هذا الرأي جادون فيما يقولون ؛ لأننا نرى كيف نزح الأجانب إلى بلدنا ، فوجدوا في مجال الاقتصاد والصناعة مجالاً فسيحاً كان سبباً في ثرائهم وفي سيطرتهم على توجيه الاقتصاد القومي . فالمسألة إذن مسألة تربية وإعداد وتوجيه . وربما كان حظنا في هذه الأمور قليلاً منذ عدة أجيال .

غير أنه إذا وجب علينا أن نأخذ عن الغرب علومه النظرية والعملية فليس معنى ذلك أن نعتقد أن الحضارة الأوربية المادية هي المثل الأعلى الذي ينبغي لنا تحقيقه في الشرق . حقاً إن العلم قد تقدم تقدماً مذهلاً في أواخر القرن التاسع عشر ، وما برح مجال التقدم فيه غير محدود . لكن العلم لا يوصف بالخير أو الشر في ذاته ؛ بل الإنسان هو الذي يحسن أو يسيئ توجيهه . وقد رأينا كيف

غلبت النزعة المادية على أهل أوروبا فسخروا العلم ، لا لنفع البشر ؛ بل استخدموه أكثر ما استخدموا فى صنع أدوات القتال ، واستعانوا به على استرقاق الأمم المتخلفة واحتكار ثرواتها الطبيعية ، أو لإشعال نيران الحروب العالمية فى قارتهم وفى غيرها . وقد غالت الأمم الغربية فى هذا الاتجاه المادى إلى حد أن كثيراً من عقلائها يرى أن الحضارة الأوربية مهددة بالإفلاس والتدهور إن سارت فى طريق النزعة المادية حتى نهايته . ومن قبل قال جمال الدين شيئاً من هذا القبيل فى أحاديثه الخاصة . وهذا هو ما رددته "غاندى" من بعده ، وهذا هو ما يخشاه الأوروبيون أنفسهم فى منتصف القرن العشرين . فهل يحق لأحد أن يسارع إلى اتهام الأفغانى بعدائه للعلم ، مع أنه نادى منذ ستين عاماً بأن العلم الصحيح هو الذى يقود إلى السلام والرخاء ، لا إلى الحرب والفناء؟

وربما كان جمال الدين الأفغانى الذى قيل إنه يحارب العلم الحديث أكثر فهماً لحقيقة هذا العلم من كثير من فلاسفة الغرب فى عصره من أمثال أوجست كونت ، الذى كان يسخر من الفلكيين الذين يريدون الكشف عن أجرام سماوية جديدة ، بحجة أن هذه الكشوف لا تعود على المجتمع الإنسانى بأى نفع ما ؛ فى حين يقول الأفغانى : "كل عناصر الوجود فى هذا العالم الفاتى خاضعة للعقل المطلق الإنسانى فكل مستحيل اليوم فى الطب والصناعة سوف يكون غداً ممكناً". كذلك كان يعتقد أن كل ما يوجد على وجه الأرض له سبب ، وإن خفى ، وأنه يمكن تفسير الأشياء جميعها بإرجاعها إلى أسبابها . أما تفسير بعض الحوادث والظواهر بالصدفة والاتفاق فلا يرتضيه سوى الجاهل . فإن الصدفة لا تفسر شيئاً ؛ بل هى دليل جهلنا بحقيقة أشياء . ولذلك كثرت الصدف عند الجاهل أما



فى نظر العلم فهى قليلة ، وعند القدرة الإلهية معدومة ولا وجود لها . وهذا هو ما رده العلماء الأوربيون بعده ، وبعبارات تشبه عباراته شبيهاً عجيباً (1).

كذلك اهتدى جمال الدين إلى فكرة يعتز بها علماء العصر ، وهى نسبية العلم الذى لا يكاد يقف عن حد ، والذى يكمل مع الزمن ، دون أن يصل إلى غايته أبداً ؛ فإن العلم أوسع من أن تحيط به حياة الفرد أو حياة الأمم "و كل ما وصل إلينا من العلوم مع خدمة ألوف الرجال لها متعاقبين من علماء محققين ، وعلى مدى الأجيال العديدة لم تزل بالنسبة إلى الحقائق الثابتة فيها علوماً ناقصة، أو هى فى حقيقتها قشور لتلك العلوم فى غايتها وحقيقتها ، وتلك هى الفكرة التى سادت فى أوربا بعد موت الأفغانى ، والتى مازالت تسود حتى الآن (2).

وإنما أبحنا لأنفسنا أن نستطرد قليلاً فى حديثنا عن فكرة جمال الدين فى العلم ، لكى نبين أنه أكثر فهماً لحقيقة العلم الصحيح ورسالته مما يظن هؤلاء الذين يرموه بأنه كان مناهضاً للثقافة الغربية ، وأنه حرم الشرق من اقتباس هذه الثقافة ، وأنه عاد بالمسلمين إلى الوراء ، وشغلهم عن مستقبلهم بالدعوة إلى الهياج والثورة والعودة إلى القديم . ونقول إنه أكثر فهماً لقيمة العلم مما يزعم هؤلاء الذين ينسبون إليه رأياً لم يقل به ؛ لأنه لم يقف فى دعوته عند حد الحض على الثورات السياسية ؛ بل دعا المسلمين إلى الخروج من ثقافتهم الراكدة ، وحثهم على تحصيل العلوم الحققة التى ربما أتاحت لهم الدفاع عن أنفسهم.

على أنه ينبغى ألا نخصص أكثر من هذا القدر للرد على هؤلاء الذين يحاولون الحط من شأن رائد المصلحين فى العصر الأخير ؛ إذ الحكم بيننا وبينهم هو مسلك الأمم الإسلامية فى الوقت الحاضر . فإن أكثر هذه الأمم تقدماً هى تلك التى تبعت تعاليم الأفغانى ، فبدأت تجمع بين الدراسات النظرية والعلمية ؛ فى

---

(1) قال هنرى بواتكاريه فى كتابه "قيمة العلم" : إن القانون (الطبيعى) من أحدث الكشوف التى اهتدى إليها العقل الإنسانى . ومازالت توجد شعوب تعيش فى معجزات مستمرة ، دون أن تبدى دهشتها لذلك . أما نحن فيجب أن ندهش من اطراد الطبيعة ونظامها .

(2) إرجع إلى كتابنا : المنطق الحديث ومناهج البحث .

حين أن أكثرها تخلفاً هي تلك التي ما برحت تفتع بالدراسات النظرية السطحية التي يخيّل إليها أنها هي المعرفة الحقة . ولقد حسب بعض الناس أن هذه المعرفة النظرية تكفي في إصلاح حال المسلمين ؛ لكن خفي عن أصحاب هذا الرأي أن هذه الحال بلغت من السوء مبلغاً لا يجدى معه أن تنتشر الأفكار الفلسفية والأخلاقية لتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق في أمم عم فيها الذهول ، وسيطر الجهل فيها غير منازع . فماذا تجدى هذه الأفكار في أمة قل قارئوها ، وندر الفاهمون من بين هذه القلة ؟ هذا إلى أن من قد يستطيع الفهم منهم ربما حمل الكلام على غير معناه " لضيق في التصور أو ميل مع الهوى " .

حقاً إن مثل هذه الآراء الفلسفية قد توتى ثمارها في الأمم المتحضرة ، التي أخذت بنصيبها من العلم والرفاهية ، فهفت نفوس أفرادها إلى الاطلاع على الجديد من النظريات الأدبية والسياسية ؛ لأنها تجد في ذلك نوعاً من الترف العقلي الذي ينسبها مشاكل الحياة المادية لوقت قصير تعود بعده إلى حياة الجد والعمل . وليس ذلك الشأن فيما نعلم شأن البلاد الشرقية ؛ بل إن الترف العقلي في مثل هذه الحال يشبه الطعام الجيد الذي لا يلائم طبع المريض فتزيد العلة حدة ، وتزداد الصحة سوءاً . وكيف لنا أن نحدث ذوى البطون الخاوية والأقدام العارية عن نظريات فلسفية كنظرية النشوء والارتقاء لدى " داروين " ونظرية الواجب الأخلاقي كما كان يفهمها " كانت " ؟ إن ما يحتاج إليه أصحاب هذه البطون والأقدام هو معرفة علمية عملية تقتل جوعهم ، وتحفظ أقدامهم من وهج الحر وقذارة الطريق . وبعد ذلك فقط يمكن أن نحدثهم عن نظريات العصر الحديث ونظريات العصر القديم . أما قبل ذلك فلا بد من أن يحيا الإنسان قبل أن يتفلسف !!

العلم وحده لا يكفي :

لقد خيل إلى الإمام محمد عبده أن الإصلاح إنما يكون بإنشاء المدارس العامة دفعة واحدة ، في كل بقعة من بقاع الممالك الإسلامية ، ويجعلها على

نسق مدارس أوربا . وهكذا تتم المعرفة بسرعة ، وتتقدم الأخلاق تبعاً لتقدم العلم . لكن أستاذه كان أبعد نظراً وأصدق حدساً ؛ لأنه كان يرى أن العلم لا يكفى فى النهضة بالأخلاق ، وهذا ما أثبتته تطور العلم فيما بعد ؛ فإن بعض المدارس الفلسفية فى أوربا حاولت اتخاذ العلم أساساً للأخلاق بدلاً من الدين ، ونعنى بها مدرسة علم الاجتماع الفرنسى ، غير أنها لم تفلح ؛ وعاد المصلحون يقولون بضرورة الدين لبناء الأخلاق <sup>(1)</sup> . كذلك فطن الأفغانى إلى أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى كانت تسيطر فى عصره لا تتيح تحقيق فكرة تلميذه . حقاً قد تكون الفكرة جليلة فى حد ذاتها ؛ لكنها عسيرة التحقيق ومشكوك فى نتائجها ؛ إذ .. ما أبعد ما يظنون . فإن هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوى قاهر يحمل الأمة على ما تكره أزماناً ، حتى تذوق لذته ، وتجنى ثمرته ، ثم يكون ميلها للصادق من بعد نائباً عن سلطته ، قائماً مقامها فى تنفيذ ما أراد من خيرها ؛ ويلزم له ثروة وافرة تفى بنفقات تلك المدارس وهى كثيرة . وموضوع كلامنا فى الضعف ودوائه . فهل مع الضعف قوة تقهر ، وثروة تغنى ؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين . فإن قالوا يمكن التدرج مع الاستمرار والثبات وافقناهم على الإمكان لو لا ما يكون ، وما هو كائن من طمع الأقوياء ، حتى لا يدعوا إليهم سبيلاً لأن يستنشقوا نسيم القوة ، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر ؟ على أننا لو فرضنا مسالمة الدهر ، ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفى لبث تلك العلوم فى بعض الأفراد والاستزادة منها شيئاً فشيئاً ، فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية ؟ <sup>(2)</sup> .

ثم إن بعض الشرقيين قد يبلغ درجة الكمال فى تحصيل العلم والفلسفة ، وربما قيل إنهم يستطيعون إرشاد إخوانهم . لكن ليس القول بمنطبق دائماً على الواقع ؛ فإنه لا يكفى أن تنقل النظريات إلى بيئة ما لكى تنجح فيها ، بل من

(1) انظر كتابنا : جمال الدين الأفغانى : حياته وفلسفته ، ص 131 - 132 .

(2) خاطرات جمال الدين ، ص 333 - 334 .

الضرورى أن تعدل هذه البيئة وأن تحور تحويراً أساسياً حتى تستعد لقبول العلوم الحديثة . فإن هذه العلوم نشأت فى الأمم الأوربية فى ظروف محددة ، ثم ازدهرت بعد أن قطعت فى نموها مراحل معينة . فإذا هى نقلت دفعة واحدة ، إلى بيئة لا تناسبها فإنها توشك أن تؤدى إلى عكس الغاية المرجوة منها ؛ إذ كيف تتسرب إلى الأذهان المشحونة بأفكار وتقاليد عتيقة لا تتلاءم مع هذه الآراء الجديدة ، وبخاصة إذا كانت آراء فلسفية أو نظرية لا تتصل بحياة الأمة ؟

إن الشرق فى حاجة إلى الحياة قبل حاجته إلى الفلسفة ، وهو أشد احتياجاً إلى الفنون العملية منه إلى الآراء النظرية . وإن أفضل النظريات السياسية أو الأخلاقية لتعجز عن تعديل أخلاق الأفراد وإرشادهم إلى طرق الرشاد بل من الضرورى أن يتم التقدم المادى أولاً لأنه أساس لكل تقدم ثقافى أو فلسفى . فإذا قيل : إن اليابان قد نجح فى نقله للعلوم الأوربية دفعة واحدة فليس هناك ما يحول دون أن يسير الشرق الإسلامى كله على نهجه قلنا : إن هذا الشرق لم يفعل كما فعل اليابان ؛ لأن بيئة اليابان تختلف عن بيئتنا ، ولأن سياسة اليابان سياسة دولة مستقلة تأخذ ما تريد وتدع ما لا تريد ؛ فى حين أن الشرق الإسلامى كان تحت سيطرة أو نفوذ الغرب . وهذا هو السبب فى أن ناقلى هذه العلوم - إن وجدوا - يعجزون عن التحرر من أوهامهم المألوفة ومما رسخ فى نفوسهم ، على عهد الصبا ، من تعظيم الأمم الغربية ، فيأخذون عنها علومها نظرية يسمعونها وقد لا يفهمونها ، ثم لا يراعون مناسبتها لأبناء أمستهم . هذا إلى أنهم قد يفقدون حاسة النقد والحكم السليم، فيعتقدون أنهم أدركوا غاية العلم.

وحقيقة فشلت حركة النقل والاقتباس حتى مطلع القرن الحالى ؛ لأنها كانت تتجه إلى العلوم النظرية والآداب أكثر منها إلى الفنون العملية وإلى العلوم الطبيعية . هذا إلى أن أهل الشرق لم يحاولوا الجمع أو التوفيق بين الثقافتين الغربية والشرقية ، على الرغم من البعثات العديدة التى أرسلت فى القرن الماضى. ذلك لأن الشرقيين عنوا فى الواقع بالمظاهر الغربية أكثر من عنايتهم بالجوهر، لذلك لم تحقق بعثاتهم نفعاً كبيراً ، ولم تتغير أحوال هذه الدول من

الضعف إلى القوة . وقد تساءل الأفغانى فقال : " هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا أحسن حالاً مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة ؟ .. وهل أحكموا الحصون وسدوا الثغور ؟ " ويمضى جمال الدين فى تسائله وتعجبه ، وهو آمن من أن يجد أحداً يناقضه . فإن التاريخ يشهد بأن مصر والدولة العثمانية أخذتا فى الانحلال فى القرن التاسع عشر حتى سقطت الأولى فى يد الإنجليز ، وحتى أصبحت الثانية دولة مريضة ، ثم لم تلبث أن فقدت ولاياتها فى الشرق والغرب .

فإذا قيل : ألم يفد الشرقيون شيئاً من اتصالاتهم بالحضارة الغربية ، وهل يعقل أن الاحتكاك المستمر بهذه الحضارة لم يؤد إلى ثمرة ما ، أجاب الأفغانى : نعم ربما وجد بينهم أفراد يتفقهون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها فى عبارات منقطة بتراء لا تعرف غاياتها ، ولا تعلم بداياتها ، ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية ، أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند هذا الحد . ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم ، فقلبوا أوضاع المساكن والمباني ، وبدلوا هيئات المأكّل والملابس والفرش والآنية ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأوربية وعدوها من مفاخرهم .

وربما قيل : إن جمال الدين يقسو على معاصريه . لكننا إذا ألقينا ببصرنا على عهد سعيد وإسماعيل رأينا كيف شيدت القصور والحدائق وجملت مصر ، كما يقولون ، ومع ذلك فإن كلاً من التجميل والتحسين لم يتجاوز بعض المدن الكبرى ، كالقاهرة والإسكندرية ؛ بينما بقى الريف المصرى فى مظهره العتيق المحزن ، حيث تتجمع الدور البائسة كقطع من الطين التى تشوه جمال الحقول . هذا ومازلنا نرى فى عصرنا ، وفى كل مرافق الحياة الخاصة أو العامة ، فى أكثر الدول الشرقية ، أن العناية بالمظهر أكثر منها بالجواهر . فتقام الأبنية الضخمة للجامعات على نمط ربما لا نجد له مثيلاً فى كثير من عواصم أوروبا .

فإن جامعة باريس مثلاً ، على شهرتها العلمية ، لتستحي من أن تقف إلى جانب جامعاتنا تطاولها بروعة البناء أو شدة البذخ ، لكن الفارق الكبير بين الحركة العلمية في كل من فرنسا ومصر أكبر من أن يشار إليه !!

وإنك لتري جامعات الأقاليم هناك في قصور أثرية قديمة ، ومع ذلك فهي لا تفتقر ساعة من نهار : يتردد الطلاب على معالمها ومكاتبها دون انقطاع ؛ بل إن المكاتب هناك ربما فاقت قاعات المحاضرات في نفعها . فالمظهر لا يهمهم بقدر ما تعنيهم جدوى الدراسات ونفعها . أما في الشرق فقد تنفق مئات الألوف من الجنيهات على بناء معهد من المعاهد العملية ، فتري بناء شامخاً ، لكنه لا يحتوى على المعامل الضرورية للبحوث . ولو وجدت هذه المعامل فسرعان ما يتطرق إليها الحطب بسبب الإهمال وسوء الاستخدام ، فلا يتحقق الهدف من إنشائها ؛ بل ربما جال في خاطر المرء أنه كان من الأولى أن تنفق هذه الأموال الطائلة في أغراض أخرى . فإن الأمة أھوج إلى المال لملء بطون الجائعين منها إلى تبديده في تجهيز المعامل التي لا يمكن الانتفاع منها !!

تلك هي الأسباب التي دعت جمال الدين إلى النظر بعين الريبة إلى هؤلاء الذين تتلمذوا على الغرب في عصره ، أو فيما قبل ذلك . وربما وجب أن نتلمس له العذر ؛ فإن ملوك المسلمين وأمرأهم ما كانوا يعنون بالعلوم الحديثة عنايتهم بمظاهر الترف . وربما كان هؤلاء الذين أخذوا بمظاهر الحياة الأوربية هم الذين سيطروا على مصائر الشعوب الإسلامية ، ومهدوا لدخول الأجنبي إلى بلادهم ، كما حدث في إيران ، وفي مصر عندما كان المتعلمون في الغرب موضع ثقة المستعمر . وحقيقة حدث شئ من هذا القبيل ، في جميع الأقطار الإسلامية التي وقعت تحت سيطرة الغرب ، غير أننا نعتقد أن جمال الدين أفرط في غلوه وتشاؤمه حتى ظنه بعض الناس عدواً للحضارة الأوربية ، وإن لم يكن هناك ما يوجب هذا الظن .

على أن تجارب الشرق منذ بدء هذا القرن أثبتت أنه من الممكن أن توجد طبقة من صميم طبقات الشعب تستطيع الاطلاع على الحضارة الغربية ، دون أن

تفقد شخصيتها ، أو تنسى أصولها ومبادئها ؛ بل رأينا أن كثيراً من الشعوب التي فرضت عليها الثقافات الأجنبية فرضاً ، كما هي الحال في شمال أفريقيا ، لم تزد إلا رغبة في التحرر ؛ لأن الطبقة المثقفة فيها بالثقافة الأوروبية هي التي تقود الجماهير هناك . ولا ريب في أن تطور الحياة الاجتماعية في بلاد الشرق في عشرات السنين الأخيرة يؤذن بظهور طبقة من المطلعين على الثقافتين الشرقية والغربية ممن يستطيعون التوفيق بين الجديد والقديم في غير إفراط ولا تفريط . وفي رأينا أن مستقبل البلاد الإسلامية رهن بهذا التوفيق . فإنه لا يجدى في شئ أن نظل جامدين ؛ بينما يسير العالم بأسره بخطى واسعة في الاتجاه العلمى . وليس من حسن السياسة في التفكير أن نحارب الجديد باسم ما ينطوى عليه القديم من خرافات وأوهام ؛ بل الأجدر الجمع بين خير العناصر في القديم والجديد.

أما فيما يمس تشاؤم الأفغانى فهناك ما يبرره ، لأنه عاش في عصر غير عصرنا ، وفي زمن تمزقت فيه الأمة الإسلامية ، وأحدثت بها الأخطار من كل جانب . فهو في عجلة من أمره ، لا يريد أن يتبع رأى المثبطين للهمم من القائلين بضرورة التدرج . وهو يعجب لهم كيف يرجنون الإصلاح في أشد الأوقات حاجة إليه . إنهم لا يفعلون سوى أن يلقوا على الزمن عبئاً يعجزون هم عن النهوض به ، ثم يظنون أن الأيام كفيلة بحل المشاكل دون أن يبذلوا من ذات أنفسهم شيئاً ، أو دون بذل القليل منها . لقد كان أولى بهم في رأيه أن يبحثوا عن العوامل التي صحبت نشأة الأمة الإسلامية وأدت إلى نهوضها الأول . ولئن اهتموا إلى هذه العوامل لعرفوا أن الدين كان سبباً في جمع كلمة هذه الأمة وبسط سلطاتها . فالعودة إلى الدين أقصر طرق الإصلاح وأسلمها .

## النهضة عن طريق الدين :

لقد ظهر الإسلام بين أمة تشبه أن تكون أمة بدائية مزقتها العصبية الجاهلية ، وسادت فيها الفردية المفرطة ، فلا تعاطف ولا إخاء ؛ وإنما تنابذ وتفاخر بالأجداد والأسلاف ، فمحا الدين ذلك كله دفعة واحدة ، وتشربت به النفوس فغدا الناس بنعمة الله إخواناً ، وانمحت العصبية القبلية ، وأصبح الفضل لذوى التقوى ، من العرب والعجم على حد سواء . وقد نجح الدين فى توحيد القلوب والتسوية بين الأجناس نجاحاً لم يحظ به دين آخر . وعلى الرغم من المحن والكوارث التى حلت بالمسلمين فى عصور تدهورهم فمازالت فى طيات نفوسهم آثار من هذه العاطفة الإسلامية . حقاً إنها آثار ضئيلة لا تدفع شراً ، ولا تأتى بخير فى عصرهم الراهن ، ولكنها بذرة صالحة يمكن أن تنمو وتزدهر ، فتقضى على عوامل الخلاف بينهم .

لذلك يرى أنصار الإصلاح الدينى ، وعلى رأسهم جمال الدين ، أن المسلمين لو عادوا - والعود يسير لا يقتضى جهداً ولا زحماً ، وإنما يتطلب من كل امرئ منهم أن يضحى بعناصر الشر التى تكمن أو تختمر فى قلبه - نقول لو عادوا إلى دينهم لاستطاعوا أن يقضوا على أسباب الخلاف بينهم ، ولعلموا أنه ليست هناك وراثه فى الملك فى الإسلام ، أو امتياز فى الجنس أو قوة العصبية ؛ بل الميزة التى يفضل بها الناس بعضهم بعضاً هى الوقوف عند أحكام الشريعة ، والقدرة على تنفيذها ، والعمل على النهوض بالأمة عن طريق الاشتراكية الإسلامية التى تقوم على حكم الشورى . وهذا الإخاء الذى يقوم على أساسه الإصلاح السياسى والاجتماعى ، هو ما يمكن تلخيصه فى قول الرسول ﷺ : "ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية " .

فالرابطة الإسلامية الحقيقية كفيلة بالقضاء على أسباب الخلاف وعلى الصراع الطائفى أو المذهبى . وبها وحدها يستطيع المسلمون أن يكونوا أمة



واحدة ، يحسب لها الأجنبي حسابها . وقد أحسن السلطان عبدالحميد الإفادة من هذه الرابطة للتهويل على الأمم الأوروبية عندما كان ينذرها بأن أى اعتداء أوربى على أية ولاية عثمانية سوف يثير المسلمين فى مختلف البلاد الإسلامية وبخاصة فى الهند . وقد أفلحت هذه الحيلة فترة من الزمن ، حتى بلغت دولة آل عثمان من الضعف غاية لا تجدى معها ثورة المسلمين فى بلاد الهند أو فى غيرها . وهكذا نفهم لماذا ألح الأفغانى فى ضرورة تقوية هذه الرابطة ، ولماذا حاول جمع المسلمين على كلمة واحدة . وأياً كان الأمر فقد أبرأ ذمته ، وبذل من أجل هذه الأمة كل ما ينبغى أن يبذل .

ولئن أدركه اليأس من أمرها إثر هذا الجهاد المستمر فإن دعوته وجدت آذاناً واعية ، وبدأت الأقطار الإسلامية طريقها نحو الاتحاد . ولم يعد الغرب يسخر برابطتهم ؛ بل يقدرها قدرها ، ويعترف أنها أقوى من أية رابطة يعقدها دين آخر بين أتباعه . فمثلاً يشهد لوثر ب ستودارد بأن من يريد حقيقة أن يعلم الهدف الذى يرمى إليه الإسلام من الرابطة الدينية فليلق ببصره على المسلمين فى العصر الراهن ، وليستمع إلى تجاوب التعاطف والحنين بينهم حتى يقف على سر هذه الرابطة ، وعلى مكانتها فى نفوس المسلمين . ففى الحق ليس هناك دين من الأديان يؤلف بين قلوب أبنائه ويوحد شعورهم ويحفزهم إلى التضامن والأخوة والاستمسك بعروتها كالدين الإسلامى . ولقد فتح المسلمون من الأمصار ما فتحوا ، ودخل فى دينهم كثير من الأمم ، ثم حلت بهم الكوارث فلم نسمع أن شعباً صبأ بعد أن أسلم .

ونقول نحن من جانبنا إن الرابطة الإسلامية التى كانت غاية فى السوهن فى أواخر القرن التاسع عشر قد تأكدت وقويت ، ولم تعد مجرد عاطفة سطحية عابرة ؛ بل أصبحت رابطة تدعو إلى العمل ، بعد أن كانت قاصرة على مجرد التحسر والشكوى . وإن فى موقف الدول الإسلامية من ثورة الجزائر ومراكش فى الفترة الأخيرة دليلاً على جدوى التعاون بين المسلمين فى مختلف أقطارهم . حقاً لم يتكشف الزمن بعد تماماً عن نتائج هذا التضامن . ولكننا نرى أن

المستعمرين بدأوا يحسبون لرغبات أهل المغرب حسابها ؛ فى حين أنهم لم يحفلوا بالرأى الإسلامى عندما قامت ثورة الريف المراكشى منذ نحو ثلاثين عاماً.

## الدين والإصلاح :

الدين إذن أساس لكل إصلاح ، ولكن بشرط أن يكون بريئاً من محدثات البدع ؛ إذ به يأتلف الشمل ، وتنبعث النفوس إلى تفضيل الشرف على لذة الحياة نفسها ، وإلى كسب الفضائل والعلوم ، وهى سلاح المجتمع فى القديم والحديث . ولقد آن للمسلمين أن يدركوا أن ما عرض لأمتهم من التدهور إنما كان بسبب الخروج على الأصول الدينية السمحة والتشبث بالبدع التى أقامها الناس مقام الأصول والعقائد الصحيحة . فالعلاج الناجع لا يكون إذن إلا برجوع هذه الأمة إلى أصول دينها ، والأخذ بأحكامها ، وإرشاد العامة إرشاداً قوياً يكفل تطهير القلوب من الدجل ، وتهذيب الأخلاق من الدنس ، ويوقد نيران الغيرة ، ويبعث المسلمين على بيع أرواحهم من أجل أمتهم .

والحق أن الإصلاح الدينى أيسر منالاً وأقصر طريقاً ، وفيه تفضل القدوة الحسنة كل موعظة أو خطابة . والعاطفة الدينية الملتهبة تصنع من المعجزات ما تقصر دونه أية عاطفة أخرى ؛ بل هى أساس ومنبع لكل عاطفة سامية غيرها ، سواء أكانت عاطفة وطنية أو أخلاقية . وإن من يطلب الإصلاح من غير هذا الطريق فإنما يركب من أمره شططاً ، فيجعل النهاية بداية ، ويعكس أساليب التربية ، ويخالف قوانين التطور الاجتماعى . فماذا يجدى علم دون دين أو خلق؟ إنه أولى أن يودى إلى عكس ما يريد المصلحون وربما كان سبباً فى أن تزداد الأمة فساداً وانتكاساً .

وقد تخيل جمال الدين كيف يمكن أن يتم الإصلاح عن طريق الدين ، فضرب لنا هذا المثال فقال : لو أن حاكماً صغيراً من بين أمراء المسلمين اهتدى إلى طريق الإصلاح المثلى ، فجعل الأوامر الدينية قانوناً لولايتيه ، وأخذ ينفذ

حدود الدين فى غير تفرقة بين رعيته وأهله وساهم مع المحكومين فى التزام الأخلاق الإسلامية ، وصدق عما ابتلى به ملوك المسلمين من الرغبة فى التظاهر بالعظمة والبذخ المخجل لاستطاع أن ينال عظمة الملك وبسطة السلطان ، وأن يكتسب الانتصار والأتباع ، فى مختلف البقاع الإسلامية ، دون أن يتجشم فى ذلك تعباً أو جهداً ، أو يضطر إلى إنفاق المال لإعداد الجيوش أو التحالف مع الدول الكبرى ؛ إذ سجد نفسه فى غنى عن ذلك كله بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الأسس الإسلامية الأولى ، وسوف يكون منهجه قدوة لغيره من أمراء المسلمين .

وهذا هو ما يعتقد دعاء الإصلاح عادة . غير أننا نراهم يضعون حلولاً ساذجة لمشاكل ضخمة ، ويتخللون طرقاً مثالية بعيدة عن واقع الحياة ونواميسها . ولذا فإن فكرتهم لا تثبت أمام النقد . حقاً إننا لا ننكر مطلقاً أن الإصلاح الدينى أساس لكل إصلاح آخر ؛ لاعتقادنا أن الأخلاق ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين ، وأنه لا أمل فى نهضة أمة تدهورت أخلاقها . لكننا نرى الأفغانى يسيط الأمر أكثر مما يقتضيه الحكم السديد الذى عرفناه له ؛ لأنه ينظر إليه من زاوية ضيقة . فإن هذا الحاكم الصغير لا يستطيع تغيير قوانين العمران أو بسط سلطانه على بقية الأقطار بمثل هذا اليسر البالغ . فإنا نرى ملوكاً طبقوا الشريعة وأقاموا الحدود غير أنهم بعيدون عن أن يبسطوا سلطانهم على العالم الإسلامى . هذا إلى أن الناحية الدينية ترتبط بمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية من اقتصاد وسياسة وثقافة ، وجميع هذه العوامل يؤثر بعضها فى بعض ، وهى لا تتطور فرادى كل فى طريقها لا تلوى على شئ ؛ بل إنها تتشابك وتتداخل وتتقاطع وتفضى إلى ظواهر جديدة . فالعودة إلى الحياة الاجتماعية التى عرفها السلف مثال أعلى يستحيل تحقيقه . ولكن من الممكن أن يعود المسلمون إلى أخلاقهم الأولى فى الوقت الذى لا يهتمون فيه النواحي العلمية والاقتصادية والعمرانية . وفى جملة القول لا نرى أن الإصلاح يمكن حصره فى مجال أو ميدان واحد ؛ بل من الضروري أن يمتد إلى جميع الميادين الأخرى ؛ إذ كيف نتطلب جودة العقيدة

وحسن الخلق لدى الجاهل المعدم الذى تضطره حياته أن يمد يده إلى مال غيره ؟ لا ريب أن فى قطع هذه اليد خير رادع للآخرين . لكن أليس من المستحسن أيضاً أن يقل عدد الأيدي المبتورة لا عن طريق الإرهاب مع البؤس الشامل ؛ بل بالنهضة الاقتصادية والأساليب الاجتماعية التى تتبعها الدول المتحضرة التى ترى رعاية الفقير من أهم واجباتها ؟ ولو فرضنا أن أمة إسلامية استطاعت تحقيق شروط الحياة الاجتماعية التى عاشها المسلمون فى الصدر الأول فإن ذلك لا يحول دون أن تؤدى عوامل التطور إلى نفس النتائج ، بمعنى أن هذا المجتمع المثالى سوف يخضع لعوامل تاريخية وسياسية تجعله يتحول شيئاً فشيئاً حتى يشبه المجتمع الحديث .

غير أنه يجب علينا أن ننصف جمال الدين فنقول إنه نادى بضرورة الإصلاح فى النواحي السياسية والدينية والعلمية ، وكل ما يمكن أن يوجه إليه من نقد هو أنه لا يلح فى بيان الصلة الوثيقة بين هذه النواحي المختلفة . ويمكن توجيه مثل هذا النقد أيضاً إلى تلميذه الأكبر . فإن محمد عبده ظن أن الإصلاح السياسى يمكن أن يتم بمعزل عن الإصلاح الدينى والعلمى . وقد زادت هذه التفرقة وضوحاً فى ذهنه بعد اختلافه مع أستاذه فى باريس وعودته إلى مصر . فهو يخبرنا أن فكرة الإصلاح لديه تتلخص فى الدعوة إلى أمرين خطيرين ، وهما تحرير الفكر من التقليد ، وفهم الدين فهماً يتفق مع ما درج عليه السلف قبل ظهور الفرق الكلامية . وبهذا وحده يمكن الرجوع إلى المصادر الأولى التى تربنا أن الدين ليس عدواً للعلم والحضارة ، بل هو باعث على الكشف عن أسرار العالم ، وداع إلى قبول الحقائق العلمية الثابتة ، ودافع إلى أكمل الخلق وأفضل العلم . أما الأمر الآخر الذى كان يشغله فهو إصلاح أساليب اللغة العربية ، حتى يسهل فهم النصوص الدينية ، وحتى تتسع اللغة ، من جانب آخر ، لما تتطلبه الثقافة العلمية الحديثة .

كذلك ينبئنا الشيخ محمد عبده أنه عنى ، أول الأمر ، بدعوة المصريين إلى معرفة حقوقهم على حكامهم ، وضرورة احتساب نفع منهم للأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر ، وأنه جهر بهذا القول ، والاستبداد في أشد عنفوانه ، قبيل الثورة العربية وفي أثنائها . ثم يستمر فيقول إنه كان روح هذه الدعوة ، وإن لم يكن إمامها المتبع أو رئيسها المطاع . غير أنه يعترف ، في نهاية الأمر ، أنه عدل عن فكرة الإصلاح السياسي ؛ إذا لم يحن بعد وقتها في ظنه . وهنا يحيل الإمام مشكلة هذا الإصلاح على القضاء والقدر ، لأنه أيقن أن هذه النهضة السياسية ثمرة تجنيها الأمة من غراس تفرسه ، وتقوم على تنميته السنون الطوال . فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعنى به الآن ... " فهو إذن من أنصار فكرة التدرج في الإصلاح ، وهي تلك الفكرة التي لم يكن ليرتضيها جمال الدين . وفي رأينا أن التلميذ كان أقل طموحاً وأملاً من أستاذه ، وأنه كان يرتضى بعض آرائه ، وبخاصة رأيه القائل بأن إصلاح المسلمين من طريق دينهم أيسر وأسلم من إصلاحهم عن طريق التقليد الأعمى للحضارة الغربية .

### التدين والتعصب :

ظن بعض المصلحين ممن تسربلوا بسراويل الغرب ، وذهبوا في تقليد الأوربيين مذاهب الخط والخط ، أن الإصلاح المرجو لا يتم عن طريق الدين ؛ بل أولى به أن يتحقق باطراح التعصب الديني ، والاتجاه صراحة نحو الحضارة الغربية لاقتباسها بأكملها ، غير حافلين بالفروق العميقة التي توجد بين البيئة الإسلامية والبيئة الأوربية ، ولا مميزين بين ما يصلح منها وما لا يصلح . ويصف الأفغاني هذه الفئة من دعاة الإصلاح بأنهم يتشدقون بأشياء لا يعلمون من حقيقتها شيئاً ، ولا يفرقون فيها بين الحق والباطل ، وهم أبواق تردد ما يزعمه الغرب من تعصب المسلمين ، مع أن هؤلاء هم أقل الناس تعصباً لدينهم بحسب الحق والواقع ، ولا أدل على ذلك من تفرقتهم بين العقيدة والعمل ؛ لأنهم لو كانوا يؤمنون بدينهم إيماناً تاماً لما كان هذا الإيمان مجرد صيغ تجري على الألسنة أو عبارات تقرأ فحسب ، في الوقت الذي زاد فيه تخاذلهم وشقاقهم .

ففكرة التعصب التى تنسب إلى المسلمين زعم يزعمه المستعمرون ، وبخاصة إذا حاول رعاياهم من المسلمين أن يجمعوا كلمتهم أو يؤلفوا جبهة منهم للمطالبة بالقوت الذى يدفع عنهم المجاعة ؛ بينما ينعم الأجانب المستعمرون بكل خيرات بلادهم . ففي هذه الحالة يفتنّ المستعمرون فى وصفهم بالتعصب وكراهيتهم للمستعمرين لأنهم على دين غير دينهم ؛ وذلك لكى يثيروا الرأى الأوروبى المسيحى ضد هؤلاء الذين يجراؤون على المطالبة بحق الحياة لأنفسهم . ثم تعلن التعبئة العامة ، وتجهز الجيوش وترسل لقتال هؤلاء المتمردين ، فتلقى القنابل على القرى الآمنة ، وتهدم الدور على أهلها ، وتسفك دماء المئات بل الألوف من الثائرين ، وبعد ذلك يقال إنهم من المتعصبين الذين يضررون الكراهية للأوروبيين وينكرون فضل هؤلاء عليهم : ألم يعمروا الأرض ، وينشئوا المدن ؟ ولكن لمن عمروا وبنوا : لأنفسهم أم للآخرين ؟ ويثور الرأى الأوروبى المسيحى حنقاً على هؤلاء الذين يدفعهم تعصبهم إلى نكران الجميل وجحود أفضل الحضارة الأوروبية . أما إذا نجح الثائرون فى فرض ثورتهم فإننا نسمع حديثاً عن تعصبهم ؛ بل يسارع أعداء الأسم إلى أساليبهم الأخرى للاحتفاظ ببقية من النفوذ فى ديار المسلمين .

من هذا يتبين لكل ذى فطنة أن أهل المسيحية أكثر تعصباً لبنى ملتهم من المسلمين فيما بينهم . ومع ذلك فكثيراً ما ينخدع المسلمون لدعاية الغرب فيصدقون أن رابطة الدين بينهم منبع كل عناء ، وأنها حجاب كثيف أو سد منيع بينهم وبين الفوز بتقدير أمم أوربا ، وينسون أن التعاون الذى توجبه رابطة الدين فضيلة من الفضائل ؛ لأنه خير الوسائل لحفظ كيان أية أمة من الأمم ، وهو صفة موجودة فى كل شعب من الشعوب .

فليس التمسك برابطة الدين - أو التعصب لها إن شئت - أمراً مرذولاً فى ذاته ؛ وإنما يقبح إذا خرج عن حد النخوة والنجدة إلى محاولة إلحاق الضرر بأتباع الديانات الأخرى ، بل هو مثار الحمية وهو الذى ينأى بأصحابه عن التسفل والخيانة وارتكاب الدنايا مما يعود على الأمة كلها بالضرر . أضف إلى

ذلك أن تماسك الأمة واتجاهها نحو الفضيلة يكون بقدر تعاون أفرادها الذين تربطهم رابطة الدين ، وهى أقوى من رابطة الجنس . فإن هذا التعاون يزيد من قوة الأمة ، بحيث يصبح كل فرد من أفرادها بمنزلة العضو فى الجسد السليم "الذى لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ، ولا يرى القدمان فى تطرفهما انحطاطاً فى رتبة الوجود" <sup>(1)</sup> فإذا انعدمت هذه الرابطة الدينية فى أمة من الأمم كان ذلك دليلاً على تحلل الروابط الاجتماعية فيها ، وعلى تفرق الكلمة وتعدد الأهواء والنزعات . وعندئذ يجد الأجنبى سبيلاً إلى استعبادها ، ولا تتاح لها النجاة إلا إذا تجددت الروابط بينها مرة أخرى . وفى الحقيقة لنا أن نعجب لأهل أوربا الذين لا تخلو كتاباتهم من الحديث عن الروح المسيحية والحضارة المسيحية ، ثم نراهم يضجرون أو يسخرون من هؤلاء الذين يتحدثون عن الروح أو الرابطة الإسلامية ؟!

غير أن للتعصب حدوداً ، وخيزره ما كان وسطاً بين الإفراط والتفريط . فالتآخى والتعاطف والتعاون على الخير بين أفراد ملة واحدة لا يمكن أن يوصف بأنه تعصب ؛ بل هو نوع من التعاون الاجتماعى الذى تقرره الأديان جميعها ، ويوجبه كل عقل سليم . ومن ثم فإننا لا نأخذ على المسيحيين تضامنهم على الخير ، ولا نفهم كيف يأخذون على المسلمين تضامنهم على الخلاص من سيطرتهم ؛ فإن ذلك التضامن من أسمى ضروب الخير .

ثم إن التعاون بين أبناء الملة الواحدة يحتمل النقص والزيادة . فإذا انمحت الأخوة ، وحل العداة والشقاق محل المحبة والتضامن تسرب الوهن والضعف ؛ ولذا حق للأفغانى أن يصف أهل التفريط فى الرابطة الدينية بأنهم من الزنادقة الذين يزعمون أن التضامن بين أبناء كل دين يبتعد بهم عن طريق الحضارة . ويحجبهم عن العلم والمعرفة ، ويحملهم على الجور والظلم تجاه من يخالفهم فى دينهم . ويظن هؤلاء الزنادقة أن انحلال الرابطة الدينية هو الشرط

(1) العروة الوثقى ، ص 69.

الأساسى فى التقدم ، ويزعمون أن الفوز معقود بتخليص العقول من العقائد والعودة إلى قانون الطبيعة ، وإلى مثل هذا رأى ذهب الملحدون فى جميع الأمم فى العصرين القديم والحديث ، ولدى الإغريق والفرس والعرب ، فكان مذهبهم الإلحادى سبباً فى القضاء على حضارات أممهم (1).

إن أهل أوروبا ينكرون على المسلمين اعتزازهم بدينهم ، ومحاولة نجدة إخوانهم ممن تنكل بهم دول الغرب . ومع ذلك فإن الأوربيين يفعلون أكثر مما يفعل المسلمون . حقاً إنهم يقولون إنهم يعتزون برابطة الجنس لا برابطة الدين . ولكن ذلك لا يغير حقائق الأشياء ؛ لأن رابطة الجنس عندهم رابطة دينية فى الوقت نفسه ما دامت أوروبا مسيحية بأسرها . وإذا تظاهر أهلها بكرهية الحديث عن رابطة الدين إذا كانت خاصة بالمسلمين أو بهم هم أنفسهم فإنهم لا يذعنون أحداً . هذا إلى أنهم ينظرون ، فى كثير من الأحيان ، إلى من لا يتبع دينهم المسيحى من أبناء قارتهم ، نظرتهم إلى من ليس من جنسهم ، مع أنه من الثابت تاريخياً أن معظم يهود أوروبا يتحدرون من نسل آرى لا سامى ؛ ذلك أن الدين اليهودى كان ديناً تبشيراً فى عصوره الأولى ، وقد تسلل إلى أوروبا وانتشر فى كثير من بقاعها حتى جاءت المسيحية فأوقفت زحفه .

ولا نريد أن نتطرق هنا إلى مناقشات تاريخية سبقنا إليها بعض الكتاب من المحققين (2)، وإنما يكفينا القول بأنهم إذا أصروا على التفرقة بين التعصب للجنس والتعصب للدين فإن رابطة الدين تشبه رابطة الجنس فى أنها من أجل الفضائل وأكثرها نفعاً إذا لم تتجاوز حد الاعتدال ، ولم تدفع أصحابها إلى ظلم الآخرين أو انتهاك حرمة المخالفين لهم فى العقيدة . ومن قبل حكم المسلمون شعوباً مسيحية ولم نسمع من المسيحيين أنفسهم أن حكامهم المسلمين جاروا عليهم أو أكرهوهم على ما يخالف عقائدهم . لكننا نعلم من جانب آخر أن رابطة

(1) انظر كتابنا : جمال الدين الأفغاني من صفحة 129 - 174 .

(2) انظر بحث الدكتور عوض محمد عوض عن اليهودية .



الجنس التى يعتز بها الأوروبيون ، والتى يحاولون إقناعنا أنها ليست من الرابطة الدينية فى شئ ، كانت سبيلاً إلى الجور ؛ بل ذريعة إلى إبادة أجناس بأسرها لكى تفسح المجال أمام الجنس الأبيض الذى اتفق أنه كان يدين فى الوقت نفسه بالمسيحية .

وليت المسلمين أشبهوا المسيحيين الذى يعيشون بينهم فى ترابطهم وتعاونهم ! فإن هذا المسلك جدير بالإعجاب والمحاكاة ؛ بل إننا لنجد أن أهل الإسلام أولى بذلك لأن دينهم يدعوهم إلى محو الفروق بين الأجناس المختلفة فى ألوانها ولغاتها وعاداتها ؛ بل أديانها أيضاً . وهذه - فيما نعلم ويعلم الأوروبيون المسيحيون أيضاً - إحدى فضائل الإسلام الذى لا يفرق أهله بين الناس تبعاً لألوانهم ؛ وإنما يرونهم جميعاً إخواناً ، وهو الدين الذى وقف رسوله ﷺ عند مرور جنازة يهودى فقيل له : إنه يهودى ، فقال : أليس نفساً ؟

### التعصب فى الإسلام والمسيحية :

ومهما يكن من شئ فإن الرابطة الدينية التى تجمع بين المسلمين فى مختلف بقاع الأرض ، والتى تختلف قوة وضعفاً تبعاً لأقترابهم أو ابتعادهم عن أصول دينهم ، هى تلك الرابطة التى يخشاها الأوروبيون ، ولا يدخرون ذخراً لتفكيك عراها وصرف المسلمين عنها . وهم سيعجزون عن تحطيمها ما دام المسلمون يسترشدون بقبس من دينهم الذى نادى بالإخاء والمساواة وحققهما بالفعل بين أتباعه على اختلاف أجناسهم وألوانهم . وهذه الرابطة الاجتماعية الإنسانية هى التى يطلق عليها الأوروبيون اسم التعصب الدينى لدى المسلمين ، ويخلطون بينها وبين ما شهده الغرب من حروب وصراع بين المذاهب الكاثوليكية والبروتستانتية منذ بدء حركة الإصلاح الدينى . فلما انتشرت مبادئ الماسونية فى أوروبا فى القرون الأخيرة اكتسبت كلمة التعصب لديهم معنى جديداً ، وهو غلو رجال الكنيسة وأتباعهم ووقوفهم فى وجه كل إصلاح مدنى أو سياسى .

أما التعصب الدينى لدى المسلمين فله معنى آخر لا بأس من الإلحاح فى بيانه ؛ لأنه يعبر عن الأخوة الدينية التى تسوى بين الأصفر والأبيض والأحمر ؛ وهذه المساواة طبيعية بين أهل العقيدة الواحدة ، وهى كفيلة بتحقيق أسباب القوة لهم مما يرد عنهم طمع الأمم المخالفة لهم فى اعتقادهم . وقد أدت هذه الرابطة رسالتها ، فدفعت بأمة كانت من أعرق الأمم فى الجاهلية وغلظة الأكباد وموات الضمير ، فجعلتها من أرقى الأمم فى وقت قصير ، ونعنى بها تلك القبائل العربية التى خرجت من شبه جزيرتها القاحلة فعمرت شطراً كبيراً من المعمورة حتى وقتنا هذا ، ومع ذلك ظلت أكثر الأمم تسامحاً مع ذوى الديانات الأخرى ، فلم تخرج أحداً من دينه بالقوة أو العنف ؛ إذ كانت تعلم ، بلسان كتابها ، أنه لا إكراه فى الدين وأنه لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة .

ويشهد التاريخ أن العرب لم يكرهوا أمة على ترك دينها ؛ بل أوصاهم الرسول خيراً بأهل الكتاب ، على الرغم من غدر اليهود وعدائهم لدعوة الإسلام . وأكثر من ذلك رأينا كيف حمى العرب اليهود فى بلاد الأندلس . وكيف عاش أصحاب الملل الثلاث عصوراً طويلة فى الشرق والغرب فى وفاق وونام ؛ إذ تركت لغير المسلمين حريتهم الدينية لقاء جزية رمزية هى الثمن البخس للدفاع عن أموالهم وأرواحهم وعقائدهم ؛ بل قل إنها هى السبيل إلى مقاومة انتشار الدين الجديد لو شأوا مقاومته . وذلك شأن القوى الكريمة السذى لا ينازل أحداً إلا إذا وضع فى يده سلاحاً يدفع به عن نفسه .

حقاً إن بعض الولاة اضطهدوا أهل الكتاب ، فى فترات نادرة من التاريخ الإسلامى ، ولكنهم كانوا ولاة ممن لا ثقة بعقلهم أو دينهم كالحاكم بأمر الله الذى ادعى الإلهوية ، وكان يغضب على المسيحيين أو اليهود فينكل بهم ، ويهدم معابدهم ، ثم يرضى عنهم فيقربهم إليه حسبما كان يمليه عليه مزاجه المضطرب . غير أننا لا نجد فى تاريخ المسلمين ولا يشبهون الحاكم بأمر الله . وليس هناك من يستطيع اتهام المسلمين بأنهم فكروا أو حاولوا التفكير فى إبادة مخالفيهم فى الدين ومحق وجودهم ؛ فى حين يشهد المسيحيون أنفسهم بأنهم

تدفقوا على بلاد الشرق فى القرون الوسطى لا للدعوة إلى دينهم بالحسنى ، وإنما للفتك والإبادة . ذلك أن الحروب الصليبية ، التى اکتوى بها المسلمون والمسيحيون على حد سواء ، كانت وليدة التعصب الدينى ، لكنه كان تعصباً دينياً من جانب واحد أى أنه كان تعصباً دينياً مسيحياً . كذلك فتك الأسبانيون بمسلمى الأندلس . ولا ريب أننا لا نأخذ على الأسبانيين أنهم أرادوا استرداد حريرتهم وبلادهم ، غير أن هناك فارقاً كبيراً بين الجهاد من أجل الاستقلال السياسى ، وبين التعصب الدينى الذى تمثل فى محاكم التفتيش وفى إبادة المسلمين فى جزيرة الأندلس أو فى إكراههم على ترك دينهم إن أرادوا البقاء .

ويمكن الاستشهاد لتعصب المسيحيين بما وقع فى العصور المسيحية الأولى عندما حصلت الشوكة لأهل هذا الدين ؛ فإن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود فى القدس وأحرقهم . ومهما اشتط المسلمون فى تعصبهم فإنه لم يصل بهم الإفراط إلى حد يقصدون فيه الإبادة وإخلاء الأرض من مخالفينهم فى دينهم ، وما عهد ذلك فى تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الأقوم على ما نقول ، وهو وجود المثل المختلفة فى عنفوان القوة ، وهى فى وهن الضعف " وعلى الرغم من الفتوح الإسلامية لم يخرج المسلمون عن المبادئ التى حددها لهم دينهم فى معاملة المخالفين لهم فى عقائدهم ، وكان شعارهم دائماً هو أن من يرضى بحمايتهم فله ما لهم وعليه ما عليهم ؛ بل بلغ من تسامحهم أنهم أتاحوا لأتباع الديانات الأخرى أن يرتقوا إلى أسمى المراكز فى بلادهم .

وهذا أمر لم تعرفه البلاد الغربية إلا فى عصور متأخرة ، وفى بعض الدول دون بعض ، حيث نرى بين حين وحين أن يهودياً يرأس الوزارة . ومع ذلك فإن باب الاضطهاد الدينى لم يوصد بعد . وإن من يطلع على الآداب الأوروبية الشعبية وغير الشعبية يرى كيف يحاول المسيحيون النيل من المسلمين ومن صاحب الرسالة بصفة خاصة . فهم يريدون تنشئة الأجيال على كراهية المسلمين والخط من دينهم .

ومما يزيد فى كراهية الأوربيين وعدائهم للإسلام أنهم يعلمون أن هذا الدين يقف حائلاً بينهم وبين السيطرة التامة على بلاد المسلمين ، ذلك لأن الرابطة الدينية بين هؤلاء تعترض سبيلهم إلى تحقيق أطماعهم الاستعمارية التى لا تكاد تقف عند حد . ولو استطاعوا أن يهجموا مع المسلمين ما نهجوه مع هنود أمريكا لما ترددوا لحظة واحدة . ألم يذهب أحدهم فى أوائل القرن الحالى إلى حض المسيحيين على نبش قبر الرسول وتحطيم الكعبة وإلى القضاء نهائياً على الأمة الإسلامية؟<sup>(1)</sup>

قد يقال إننا فرط ، بدورنا ، بعض الإفراط فى تحليل عواطف الأوربيين تجاه المسلمين ، وربما ظن بعض الناس أن التعصب المسيحى قد أفسح مكانه للتسامح والشفقة والإحسان . لكننا ندفع عن أنفسنا تهمة الغلو بما قرأناه أخيراً لكاتب فرنسى يأخذ على الأمريكيين أنهم يعطفون على أهل الجزائر ومراكش فى ثورتهم ضد الاستعمار الفرنسى ، ويذكرهم بأنهم فعلوا أكثر ما يفعل الفرنسيين ؛ فإتهم أبادوا قبائل الهنود الحمر ، ولم يحتفظوا من هؤلاء الهنود إلا بعدد قليل كوسيلة للدعاية السياحية . فكان هذا الكاتب يطلب إلى الأمريكيين أن يطلقوا أيدي المستعمرين فى رقاب ملايين المسلمين ، حتى لا تضيق أراضيهم بمئات الألوف من الأوربيين الذين لا تتسع لهم بلادهم ! إن لو استطاع أمثال هذا الكاتب أن يبيدوا المسلمين لفعلوا . ولا يحول دونهم ودون ذلك سوى الرابطة الإسلامية فى مختلف أقطارهم.

لذلك نراهم لا يألون جهداً فى محاربة هذه الرابطة باسم التعصب الدينى حتى يتحلل المسلمون من روابطهم فيسهل القضاء عليهم فرادى . غير أنهم لم ينجحوا إلا فى تسخير نفر قليل من زعائن المسلمين لنشر آرائهم ، أى ممن فقدوا الاعتزاز بدينهم ، ولم يستعوضوا عنه بحبهم لوطنهم . " فمثلهم كمثل من

(1) انظر تاريخ محمد عبده ، ج1، ص 801.

يهدم بيته ، قبل أن يهين لنفسه مسكناً سواه ، فاضطر للإقامة بالعراء معرضاً لفواعل الجو وما تصول به على حياته <sup>(1)</sup>.

وهؤلاء هم من وصفهم جمال الدين وتلميذه فى العروة الوثقى بأنهم الدهريون ممن يستترون باسم الإسلام ، وينشرون آراء الإلحاد باسم العلم الحديث . وقد عجب الأفغانى لأمر كثير من سذج المسلمين الذين يقعون فى حبال الدعاية الاستعمارية مع محافظتهم على عقائدهم ، وتمسكهم بإيمانهم ؛ ومع ذلك فهم " يسفكون الكلام - كما يقول - فى ذم التعصب ويجهرون فى رمى المتعصبين بالخشونة والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بذلك يشقون عصاهم ... ويخربون بيوتهم بأيديهم ... " لقد نسى هؤلاء السذج أن الغربيين الذين ينشرون بينهم مثل هذه الآراء ويزعمون أنهم أعداء للتعصب هم أكثر الناس تعصباً فى الحقيقة ، وأحرصهم على حماية الدعاة إلى دينهم والقائمين بنشره فى البلاد الخاضعة لسلطانهم ؛ كما يتجلى ذلك التعصب فى تضامن البلاد الأوربية ، على اختلاف مذاهبها السياسية ، وفى تعاونها للقضاء على كل حركة استقلالية يقوم بها المسلمون فى إحدى المستعمرات الأوربية . وقد لمسنا عن قرب كيف شوهدت ثورة المغرب الأخيرة وصورت فى مختلف الصحف الأوربية بأنها وليدة التعصب الدينى ، مع أن قليلاً من العقلاء والمنصفين من الأوربيين يقرون أنها وليدة البؤس والفقر ، إن لم تكن فى رأيهم دليلاً على رغبة الشعوب فى تقرير مصيرها .

وإن ما نراه اليوم من اجتماع كلمة الأوربيين عل الطعن فى كل نهضة إسلامية هو ما لاحظته أصحاب العروة الوثقى منذ سبعين عاماً فى سياسة الدول المسيحية ؛ فإناك تراهم على اختلافهم فى الأجناس وتحاقدهم وتنايذهم فى السياسات وترقب كل دولة منهم لعثرة الأخرى حتى توقع بها السوء ، يتقاربون ويتآفون ويتحدون فى توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم فى

---

(1) العروة الوثقى ، ص 107

الدين ، وإن كان فى أقصى قاصية من الأرض ، ولو تقطعت بينه وبينهم الأسباب الجنسية . أما لو فاض طوفان الفتن ، وطم وجه الأرض ، وغمر البسيطة من دماء المخالفين لهم فى الدين والمذهب ، فلا ينبض فيهم عرق ، ولا ينتبه لهم إحساس ؛ بل يتغافلون عنه ، ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغالية من حده ، ويذهلون عما أودع فى الفطر البشرية من الشفقة الإنسانية والمرحمة الطبيعية ، كأنما يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة والهممل الراحية ، وليسوا من نوع الإنسان الذى يزعم الأوروبيون أنهم حماته وأنصاره . وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين فى تعصبهم الدينى ، ولا يألون جهداً فى تقوية عصبيتهم . وليتهم يقفون عند الحق ولكن كثيراً ما تجاوزوه . . وقد رأيت أنت كيف تجاوزوه عندما بلغوا فى تنكليهم بالمسلمين إلى أن تحالفوا مع من زعموا أنهم قتلوا المسيح ، ومهدوا لهم وساعدوهم لتثريد مئات الألوف من المسلمين الذين يظهرون لهم العطف بالإنسان ، ويضمرون لهم الفتك بالعمل الوئيد المستمر .

فليس للمسلمين أن يصدقوا إذن ما يقلل عنهم من أنهم متعصبون وأنهم مفرطون فى تعصبهم ؛ بل أولى بهم أن يعلموا أن تمسكهم بالدين واعتزازهم بالرابطة الإسلامية هو السلاح الذى يملكونه فى وقتهم الحاضر ، فى انتظار أن يقذفوا بأعدائهم إلى البحر كما فعل أسلافهم من قبل ، ولكن دون أن يهبطوا إلى ما هبط إليه الأوروبيون من البطش والعدوان . لقد سبق أن طردهم صلاح الدين من الأراضى المقدسة ، ولكننا لم نسمع منهم هم أنفسهم إلا أنه كان مثال الفروسية والسماحة الإسلاميتين . ذلك أن الدين الإسلامى لا يرضى إكراه الناس على ما لا تطمئن إليه قلوبهم ، ولو كان الإسلام نفسه ؛ بل إنه يصارح المفرطين فى التعصب بأنهم ليسوا مسلمين . أقبعد ذلك يقولون إن المسلمين متعصبون وإنهم يمقتون أهل الديانات الأخرى ويقسمون على إبائتهم ؟ أليس الأجدر أن يعترف الغرب بما عمله المسلمون حق العظم من أن "الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية

معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل .  
فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً فى عناصرها ، متغلغلاً فى أحشائها ،  
وتمشياً فى كل عرق من عروقها ، وهى أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداوة  
والحقْد .....<sup>(1)</sup>

لقد نظر المسيحيون إلى الإسلام دائماً نظرتهم إلى الخطر الأكبر الذى لا  
يفوقه خطر آخر ؛ بل قال بعضهم إن الإسلام كان طعنة خنجر وجهت إلى  
المسيحية ، وذلك فى الوقت الذى يحث فيه الإسلام أتباعه على حسن معاملة  
أتباع المسيح بصفة خاصة ! ولا ندرى لماذا يصر أهل الصليب على تعصبهم ؟  
ألم يأمرهم المسيح بمحبة أعدائهم ؟ فلماذا لا يطبقون هذا المبدأ على المسلمين ،  
ولا سيما إذا كان هؤلاء لم يضرروا حقداً حتى فى أيام قوتهم وسلطانهم ؟ والحق  
أن التفاهم بين المسلمين والمسيحيين ليس أمراً مستحيلاً إذا طبق كل من  
الفريقين مبادئ دينه وتعاليمه .

لقد مضى الزمن الذى كان فيه أهل الشرق غفلاً يؤمنون بما يوحى إليهم  
به دعاة الغرب وزعائفه . فهم يعلمون حقاً أن الغرب لا يريد بهم خيراً ، وأنه لو  
استطاع أن يمحوهم محواً لفعل ، وأن ما يحفظ عليهم بقاءهم حتى الآن هو أن  
دول أوربا عجزت عن القضاء على الرابطة الإسلامية التى يسمونها تعصباً وهى  
فى الحق ليست تعصباً . ولو سلمنا جدلاً أنها كما يقولون ، لما كانت شيئاً ذا  
قيمة بجانب تعصب مسيحيى أوربا ؛ إذ قد يكون للمسلمين فى التعصب ألفاظ  
وكلمات ، ولكن الذى يكون من جمهور المسيحيين إنما هو أعمال وضربات فى  
المعاملات .

فإذا بقى بعد ذلك شئ من ريب فى نفوس هؤلاء الذين يحلو لهم أن  
يخدعوا أنفسهم بأساليب الغرب ودعايته ؛ فليس لهم إلا أن يلقوا ببصرهم على  
ما يصطنعه الأوربيون من وسائل الشدة والقهر فى المستعمرات الإسلامية التى

<sup>(1)</sup> من كلام جمال الدين الإفغانى .

ما زالت فى أيديهم ؛ وعلى التقدم الهائل الذى تخطوه البلاد التى نجحت فى التحرر من سيطرة الغرب .

ولكننا نؤكد آخر الأمر أن التعصب الأعمى لن يفيد المسلمين ولا المسيحيين شيئاً ؛ إذ لا يورث هذا التعصب سوى الحقد والكراهية ، والشر لا ينتج إلا شراً مثله . إذن فالسبيل القويمة إلى النهضة الإسلامية هى أن ينقطع المسلمون عن المفاخرة بماض مجيد لم يكونوا أمناء عليه ، وأن يعلموا أن عصر المعجزات قد انقضى ، وأنهم لن يكونوا أهلاً للانتماء إلى هؤلاء الذى يفخرون بهم إلا إذا لحقوا بهم عن طريق العلم والعمل والأخلاق والوقوف على سر تقدم الغرب وقوته ومحاولة الوصول إلى مرتبته فى العلم والقوة .